The authority of knowledge systems between the ethics of writing and the discourse system in structural thought

M.D. Mohamed Hato Aziz
University of Baghdad/College of Arts/Department of Philosophy
mohammed.h@coart.uobaghdad.edu.iq

DOI: https://doi.org/10.31973/aj.v3i142.3831

Abstract:

The word ethics came from ethics, which is the practical expression of religions, meaning the deliberative practice of the rules of religion (behavior and practical application of the principles of religions). But after the intellectual and philosophical revolutions in the post-modern period, this concept began to move away from its initial meaning to correspond to the meaning of restriction, or the coercive conditions that guarantee belonging to a sect, party, or intellectual movement, or oblivion from a specific ideology. In other words, every sect, idea, or party has its own morals.

Keywords: ethics, morals, religions, doctrine.

سلطة أنظمة المعرفة بين أخلاقيات الكتابة ونظام الخطاب في الفكر البنيوي

م.د. محمد هاتو عزيز
جامعة بغداد/ كلية الآداب/ قسم الفلسفة

(مُلَخَّصُ البَحث)

جاءت كلمة الأخلاقيات من الاخلاق وهي تعبير العملي للأديان، بمعنى الممارسة التداولية لقواعد الدين (السلوك والتطبيق العملي لمبادئ الأديان)، ولكن بعد الانقلابات الفكرية والفلسفية قي فترة ما بعد الحداثة أخذ هذا المفهوم ينزاح عن معناه الأولي ليقابل معنى القيد، أو الشروط القسرية التي تضمن الانتماء إلى مذهب، أو حزب، أو حركة فكرية أو التغبير عن أيديولوجيا محدد. بعبارة أخرى، لكل مذهب أو فكرة أو حزب أخلاقيات خاصة بها.

الكلمات المفتاحية: الاخلاقيات، الاخلاق، الأديان، المذهب.

المقدمة:

أثرت محاضرات العالم السويسري فردينان دو سوسور على الاتجاهات الحديثة في بداية الستينيات من القرن العشرين، وقد لاح في الأفق الغربي بوادر ظهور مدرسة ذات منهج يركز على اللغة، وعلى الوثائق المكتوبة، وعلى الإشارات والعلامات، وعلى تكوين العلامة نفسها، بعد تأثر البنيوية بمدرسة الشكلانيين الروس، أخذت توظف المقالات السوسيرية في منهجها وكتاباتها، وفي كافة العلوم الإنسانية وكذلك العلوم التطبيقية، وكان بارت أحد رواد البنيوية، الذين اهتموا بالكتابة.

يرى بارت أن الكتابة واقع مستقل بذاته، يختلف نظامه الداخلي عن النظام الطبيعي الذي يقع خارج الأذهان، وقد كانت لاعتبارات (ايمانوئيل كنت) ـ في جعل الزمان والمكان صوراً لنظام العقل فقط ـ أثرها الكبير على البنيويين، وذلك عندما أدركت أن للكتابة نظاماً عقلياً له زمان ومكان داخلي خاص، وهو قادر على أن يحول الأشياء إلى وحدات لغوية ويقيم بين هذه الوحدات علاقات تابعة لهذا النظام الداخلي . وقد عرف البنيويون منذ تلك اللحظة أن الكتابة قد وقعت في مأزق عام منذ افلاطون إلى نهاية القرن التاسع عشر، هذا المأزق قد امتد إلى أخذ يتسلل داخل الكتابات البنيوية نفسها، بل أنه كان قادرا على اختراق المنظومة الفكرية، وانطلاقا من ذلك الموقف أدركت البنيوية ذلك التناقض بين المتناهي واللامتناهي (اللغة كواقع موضوعي واللغة كواقع مثالي)، والذي كان سببا رئيساً في إحداث ذلك المأزق داخل المنظومة الفكرية للكتابة البنيوية.

إن ذلك التناقض المعرفي الذي أدركته البنيوية بين المتناهي واللامتناهي داخل الكتابة بشكل عام، وداخل كتاباتها بشكل خاص، أي ذلك التناقض بين واقع الأشياء ونظام الكتابة – نسقها العقلي – هو المأزق الذي ادى الى شقاء الكتابة فمازالت الكتابة ـ رغم النقد الجارح لها وحتى مع البنيويين أنفسهم ـ حرماً مقدساً، تتهافت عليها الميادين العلمية من كل جانب، وترسم قدسيتها لأنها محمولة على الكتابة، ذلك ما شعرت به البنيوية . عندما أخذت تطارد الكتابات منذ أفلاطون إلى نهاية القرن التاسع العشر، ابتداء بالفيلسوف الألماني نيتشه، الذي شحذ للفكر الغربي بمرحلته الجديدة مطارق النقد، وهو بداية إعلان الحرب على قدسية الكتابة.

إذن، أين يكمل الجانب المقدس من الكتابة ؟ أين يخفي ذاته في زواياها؟ أين القوة التي ساندت وساهمت في صنع تلك القدسية؟ ما السلطة أو التشريع الإلهي أو الأخلاقي والقانوني الذي شرع لها تبك القدسية؟

استقصاء المتناهي واللامتناهي في الكتابة:

إن تقصي خطوات وجود المتناهي واللامتناهي داخل الكتابة، والسعي إلى ترسيخه لتكون الكتابة صيرورة دائمة التبدل من حيث تناهيها، ولكي تتصل العلوم مع الطبيعة المتحولة القابلة للتغّير، وفي سبيل ذلك كان هدف البنيوية منصبا نحو التوجه إلى العلوم التي تحمل في جوهرها ذلك التناهي، العلوم التي لا تتوقف عند حد معين ويكون التحول فيها السمة الأساسية في استمرارها، هذه العلوم هي علم البيولوجيا وعلم الاقتصاد وغيرهما. ويكمن ذلك الجهد بمحاولة الاتجاه البنيوي انتشال الكتابة من ذلك اللامتناهي المقدس داخل لكتابة، ورغم ذلك الوعي بخطورة الكتابة، وقعت هي الأخرى في تلك الأزمة، عندما جعلت موت المؤلف نهاية لتلك القدسية في الكتابة، لأنها وجدت نفسها غير قادرة على الخروج من هذا التناقض وتلك الأزمة المعرفية، لهذا السبب حولت ملكية الكتابة إلى ذوات وأصوات لا متناهية، لكي تستطيع الخروج من مأزقها. ولأنها لم تجد ذلك الأصل المتناهي للكتابة الذي يمثل الأثر العميق الذي كانت الكتابات عبارة عن إحالات أصداء كثيرة لصوت واحد، تركت الكتابة مفتوحة الطرفين بين أصل ووجود الكتابة، ونهايتها، وقد اتخذت البنيوية في سبيل تدارك تلك الأزمة طريقين:

أولا: ساد الكلام في المحافل الثقافية، وفي قناعات الاتجاه البنيوي نفسه، أن ظاهرة المؤلف ظاهرة حديثة العهد في الفكر الغربي، لا أصل لها، وبموت المؤلف يطهر النص من كل قداسة داخله، ((فأصل الأشياء يتقهقر باستمرار كونه يرجع إلى زمن لا وجود للإنسان فيه)) (فوكو، ب.ت، ص٢٧٤).

ثانيا: ضرب مركزية الكتابة، لأن الكتابة لا أصل لها، وهي بالتالي من إنتاج ذوات لا متناهية وتراكم خبراتهم، وهو ما أوقع الكتابة في أزمة شقاء لا نهاية لها.

وقد وعت البنيوية الشقاء داخل الكتابة، وحاولت إخراجها من هذا المأزق ،لكنها وقعت هي الأخرى بذلك المأزق الدوري، وتركت الأطراف التاريخية للكتابة دون مؤلف، بعد إعلان موت المؤلف، كما أمات نيتشه الإله داخله، وأنهى منظومة القيم الأخلاقية ، وأصلها الوجودي، بفرض موت أصلها الإلهي، بدعوى، أن أصل الأخلاق كان من صنع الضعفاء والعبيد.

إن أقصى ما توصل إليه الاتجاه البنيوي، هو وعي ذلك التناقض بين المتناهي واللامتناهي داخل الكتابة وعيا شعوريا ليس على مستوى الفكر وحسب، بل وحتى في صميم الشعور الذي يتمزق بفعل ذبك الوعي بالذات، وقد دشنت جهدها لوضع منهجٍ قادرٍ على تحليل الكتابة وتخلص من ذلك الشعور الممزق . وقد انكشف إمام البنيوية أن للكتابة حياة يسودها عقد اجتماعي بمعنى أنها تدار من سلوكيات واتفاقات وعلاقات منظمة لتحديد حركة

عناصرها أو وحداتها الجزئية. وقد حاولت البنيوية الكشف عن هذه الاتفاقات والعلاقات التي أقيمت داخل حوارية العقد اجتماعي. بل أنها حاولت فك هذا العقد الاجتماعي الذي تم بين وحدات الكتابة عن طريق القول باعتباطية العلامة في اللغة، لماذا حاول الاتجاه البنيوي أن ينهج في المعرفة وبدأ بمطاردة الكتابة.

إن سبب اهتمام الاتجاه البنيوي بالكتابة يتضح من خلال تعريف فوكو لها: ((إن البنيوية هي ـ حاليا ـ مجموعة المحاولات التي نقوم بوساطتها بتحليل ما يمكن تسميته الركام الوثائقي، أي مجموعة العلاقات والآثار والإشارات التي تركتها الإنسانية في الماضي والتي ما زالت تكونها يوميا وبعدد متزايد حولها، مما يتألف هذا الركام الوثائقي أي هذه الآثار والعلامات المودعة والمترسبة في تاريخ العالم المسجلة في الأرشيف العالمي الذي تكوَّن وما زال يتكّون، انه يتألف طبعاً من العلامات الشفهية الصرفة وكل الآثار الخطية والممارسات التداولية داخل منظومة فكرية ... وكل الأشياء الأخرى المكتوبة والمطبوعة والمنشورة والمقولة)) (فوكو، ١٩٨٨، ص١٦).

لمعرفة حياة الكتابة هو ذلك الركام الوثائقي الذي يحمل تاريخاً مصنفا للكتابة تتميز به كتابة ما عن غيرها من الكتابات. وقد وجد البنيويون أنَّ هنالك خصائص محددة تحكم الكتابة ـ هذا إذا كانت الكتابة محكومة ببنية ـ هذه الخصائص تحمل في طياتها صفات محددة يمكن معرفتها بالكلية، والتحول، والتنظيم الذاتي.

تعد (الكلية) من الخصائص التي تحكم البنية والتي تحكم بدورها كتابة، بحيث أنها لا تتألف من عناصر خارجية تراكمية مستقلة عن ذلك الكل، أي مستقلة عن النسق العام الذي يعطي للكتابة شكلها المميز، بل هي تتكون من عناصر داخلية خاضعة للقوانين المميزة للنسق، ولا ترتد قوانين تركيب هذا النسق إلى ارتباطات تراكمية عشوائية، بل هي تضفي على الكل خواص المجموعة (إبراهيم، ١٩٧٩، ص٣٠). إن ما يهم البنيوية في هذه الخاصية الكلية هي العلاقات القائمة بين وحدات الكتابة أي عمليات البناء والتكوين في النسق أو النظام الواحد.

إن الكتابة نظام قائم بذاته، وتلك القيمومة تكسبها صفة جديدة وهي قابلية البنية للتحول، فالكتابة لا يمكن أن تظل في حالة سكون مطلق، بل هي تقبل دائما من التغيرات ما يتفق مع الحاجات المحددة لها من قبل النسق وهذا التحول يحدث داخل الكتابة نفسها.

بعد تلك القدرة على التحول أصبح للبنية صفة جديدة وهي أنها ذات تنظيم ذاتي، بمعنى أن بوسع البنية تنظيم نفسها بنفسها، مما يحفظ لها وحدتها ويكفل لها المحافظة على بقائها، ويحقق لها ضربا من الانغلاق الذاتي(إبراهيم، ١٩٧٩، ص٣١).هذه القواعد الثابتة تحكم بمراعاتها الآثار المكتوبة، وتحقق لها ضربا من الخلود والمصداقية التي تهيمن على

ذهنية معينة كانت سائدة في فترة معينة من التاريخ العالمي. وقد أعطى البنيويون صفات التعميم على التاريخ الوثائقي، من حيث انه تاريخ تحكمه هذه الكليات والتحولات والأنساق الذاتية المنغلقة التي تحجب عنا رؤية العالم كما هو، والأصل الأول الذي نطق بأول كلمة أثناء مشاهدة العالم أول مرة.

الكتابة ونظام الأخلاقيات البورجوازية:

إن أزمة الكتابة البورجوازية يعني أن هناك نسق وأزمة نسق فكري جارف لما هو قبله ، أي أزمة المعنى الموجه نحو إقصاء المعاني المواجهة له. الأمر الذي ساعد المدرسة البنيوية على معرفة أصناف الكتابة الموجهة للتدليل على سلوك معين، بمعنى ان الكتابة مؤسسة اجتماعية تمثل نظاماً من القيم الداخلية وهي ـ كما يذك ـ دعاة البنيوية عقد اجتماعي يقوم بتنظيم وحدات الكتابة وذلك من خلال توزيعها على هيئة علاقات هرمية داخل النص، بحيث تضمن كل وحدة من وحدات النص مكانها الملائم إزاء الوحدات الأخرى. فلا توجد اذن لغة مكتوبة من دون ملصق يعلن عن هويتها، هذا ما يذكره أصحاب المنهج البنيوي، وعلى الأخص في اغلب الكتب والمقالات الاولى لرولان بارت (١٩١٥–١٩٨٠): وهو ناقد وعالم لسانيات فرنسي، له مؤلفات كثيرة وأشهرها مؤلفه المعروف(درجة الصفر للكتابة) و(درس السيميولوجيا) و(هسهسة اللغة) وكتاب (لذة النص) وكتاب (أسطوريات) (كولر، ٢٠١٦، ص١٧).

تعد الكتابة البورجوازية من الأزمات الثقيلة لدى بارت، وقد أدرك في نهايات تحليله البنيوي، أن الكتابة البورجوازية كان واقعة بأزمة حديثة، وهي اعتقادها بأنها تعبر عن لغة كونية. لأن الوحدة الأيديولوجية للبورجوازية قد أنتجت كتابة وحيدة، وفي هذه الفترة ـ أي الفترة التي تكونت فيها الكتابة البورجوازية الكلاسيكية والرومانسية. ـ لم يكن ممكناً تمزيق هذا الشكل الوحيد لهذه الكتابة، لان الوعي لم يكن ممزقاً آنذاك، لأن ((هذه الكتابة الكلاسيكية ـ البورجوازية ـ هي بطبيعة الحال كتابة طبقة اجتماعية، ولما كانت قد ولدت في القرن السابع عشر وسط فئة متمركزة مباشرة حول السلطة وتكونت بقرارات دوغمائية وطهّرت سريعاً من جميع الطرائق النحوية، التي أنشأتها الذاتية التلقائية للإنسان الشعبي، وروضت، بعكس ذلك، على وضع التحديدات،فإن الكتابة البورجوازية قد قدمت أول الأمر بالاستخفاف المعهود عند الانتصارات السياسية الأولى على أنها لغة طبقة أقلية محظوظة)) (بارت، ١٩٨٠، ص٧١).

أن الكتابة ـ كما هو معروف لدينا ـ كانت في بداياتها منحدرة من إرادة شعبية تلقائية، قبل أن تكون عقدا اجتماعيا، وقبل أن تروض من قبل مؤسسات بورجوازية تقنية، بعد هذه المدة الوجيزة فإن التلقائية الشعبية في الكتابة أخذت تتحول تحولات غريبة وتنحو منحى

مؤسساتي مركب، يقول بارت بهذا الشأن: وفي سنة ١٦٤٧ أوصى فوجلاسوهو نحوي فرنسي اشتهر في القرن السابع عشر بحرصه على الاستعمال السليم للغة الفرنسية، بإتباع الكتابة الكلاسيكية باعتبارها حالة واقعية لا حالة قانونية، وكان الوضوح ما يزال استعماله محصوراً على البلاط (بارت، ١٩٨٠، ص٧١).ويقصد بارت في ذلك لغة النبلاء والطبقة البورجوازية.

تمركز اللغة البورجوازية وتحديد نوع الكتابة:

إن الكتابة البورجوازية تمثلت لنا بطابعها الواضح، وكان سبب هذا الوضوح الجهاز اللغوي البورجوازي، الذي كان ما يزال في طور النمو، فكان يرتكز بصورة أكثر على اللغة الكلاسيكية القديمة قبل أن تتحول هذه اللغة الواضحة إلى قيمة ورغبة في تبني الوضوح. بعد تلك الفترة فترة أخرى، حيث بدأت الكتابة البورجوازية تتغلب على الكتابة القديمة، واخذ الوعي الشعبي يتفاعل معها خصوصاً عندما أصبحت اللغة البورجوازية هي اللغة المعبرة عن ما هو كوني، أي لغة كلية شمولية، وفي الوقت نفسه مقدسة من جهة أنها التعبير الموضوعي الوحيد للأشياء الخارجية. يذكر بارت ذلك بقوله : وفي سنة ١٦٦٠ اكتسبت اللغة الكلاسيكية داخل النحو الذي حدد قواعده جماعة بور – رويال: وهو دير فرنسي للراهبات تأسس ابتدأ من عام ١٦٣٥ وكان يضم حركة دينية سرية من الفلاسفة واللاهوتيين أعلنت عن نفسها في القرن ١٧. اشتهر بور – رويال من خلال كتابات باسكال وراسين .. وكذلك مجموعة من النحويين والبلاغيين وعلماء اللغة. (برهييه، ١٩٨٣، ص١٣). فمثلا صفات الكوني وأصبح الوضوح قيمة تقال من غير أن تنفذ(بارت، ١٩٨٠، ص٧١).

كانت اللغة ـ الجهاز اللغوي والمفهومي ـ على أساس هذا الانتقال في الزمن في طور النمو والاكتمال، وقد شارك الشعور الشعبي في تطويره من غير وعي منه، فقد كانت اللغة البورجوازية تنسل وبصورة بطيئة بين وحدات اللغة القديمة، وكانت قادرة بما تمتلكه من جهاز منظّم – على خلاف اللغة القديمة، فالجهاز داخلها كان شعبيا تلقائياً – على تغييب مفردات اللغة الكلاسيكية، واستبدالها بمفردات بورجوازية حديثة. وكانت تضطر أحيانا ـ في حالة عدم غياب هذه المفردات ـ إلى إقصائها بصورة متعنتة وخشنة عن طريق إدخالها في معجم تصنيف المفردات أو الاصطلاحات الممنوعة. ولهذا السبب ((فإن هذه الكتابة الواحدة والكونية لم تبح لنفسها أي اهتزاز، وذلك لفائدة استمرار كل جزء فيه كان اختيارا، أي كان إقصاءً جذريا لكل ممكن تتجزء اللغة فالسلطة السياسية ووثوقية الفكر، ووحدة اللغة البورجوازية، هي وجوه لنفس الحركة التاريخية))(بارت، ١٩٨٠، ص٧١).

إن سبب استمرار الكتابة البورجوازية وعدم تمزقها طول هذه الفترة بقول بارت: ((ليس هنالك ما يبعث على الاستغراب لكون الثورة الفرنسية لم تغير شيئا في الكتابة البورجوازية ... ذلك لان الأيديولوجية البورجوازية قد استمرت خالية من الشروخ إلى سنة ١٨٤٨ وبدون أن تهتز ادني اهتزاز عند مرور ثورة ١٧٨٩ التي كانت قد أعطت للبورجوازية السلطة السياسية والاجتماعية ، وليس السلطة الثقافية وحسب، لان هذه الأخيرة كانت تمتلكها البورجوازية منذ أمد طويل))(بارت، ١٩٨٠، ص٧٢).

ولتوضيح الكيفية التي من خلالها تجاوزت البورجوازية هذه الثورات والاضطرابات بالمحافظة على وحدتها يقول بارت: ((لم يكن أمام الكتابة البورجوازية سوى أن تعيد نفسها وان تواصل السير قافزة فوق الإجازة القصيرة التي فرضتها عليها الاضطرابات وحتى الثورة الرومانسية الحريصة اسمياً على إرباك الشكل، قد حافظت بتعقل على الكتابة المعبرة عن أيديولوجيتها))(بارت، ١٩٨٠، ص٧٢).

يصف بارت تلك الكتابة بالعمومية، وقد وجدها عند أدباء وفلاسفة محددين بالأيديولوجية البورجوازية، ويذكر بارت حول هذا الموضوع: إن هذه الكتابة تمتاز عند صاحبها بأنها كتابة مشخصة وواقعية ومطابقة للوجود. خصوصا في روايات الأديب الفرنسي بلزاك، وأن من مميزات هذه الكتابة النابعة من هذه الايدولوجيا أنها تعيد خلق طبيعة غير قابلة للفساد ـ لأنها تحمل لغة شمولية وكونية لغة (الآلهة) ـ فلقد كان الفلاسفة البورجوازيون الأوائل ينفذون إلى علم الدلالات ويخضعون أي شيء للعقلانية أي العقلانية البورجوازية القائمة آنذاك(بارت، ١٩٩٦، ص٢٧٩).

فترة تمزق الكتابة البورجوازية:

إن السؤال الذي يجب أن نسأله سلفا هو: ما هي الأوضاع والأحداث التاريخية التي مزقت هذه الكتابة؟ كيف يصف بارت عملية تمزق الكتابة في االمجتمع البورجوازي رغم صلابة نواتها الفكرية ؟ ألم يذكر بارت أن الثورات الفرنسية لم تؤثر فيها، وأنها قد أسرعت إلى صياغة إيديولوجيتها من جديد، بحيث استطاعت تجاوز هذه الاضطرابات؟ كيف تستوعب لحظة مفاجئة وقصيرة بغتةً كتابة كونية منظمة خلال فترة طويلة، بل، كيف استطاعت تلك البرهة الهامشية، تقريظ كيان وجودي راسخ له بنيته العميقة والمتجذرة في التاريخ؟.

المر الذي يلزم رولان بارت إيجاد الأجوبة المقنعة على تلك التساؤلات بقوله: ((إن السنوات الواقعة حوالي ١٨٥٠ جمعت بين ثلاثة أحداث تاريخية جديدة: انقلاب الوضع الديموغرافي الأوربي، وتقريظ الصناعة المعدنية لصناعة النسيج أي ميلاد الرأسمالية الحديثة. ثم انقسام المجتمعات الى طبقات متعادية خصوصا في فرنسا، هذه الظروف

وضعت البورجوازية في موقف تاريخي جديد. فإلى ذلك الحين كانت البورجوازية هي التي تحدد بنفسها مقياس الكوني جاعلة فيه ما تشاء بدون أن يناهضها احد من التيارات الأخرى))(بارت، ١٩٨٠، ص٧٣).

تتضح أمامنا أن لهذه الأحداث الجديدة أبعادها الذكية، بحيث استطاعت التسلل إلى نواة الأيديولوجية البورجوازية. وأن تكشف عن زيف تلك اللغة الكونية. وكانت هذه الأحداث أكثر تنظيماً وبراعة من الثورات الفرنسية، بحيث وضعت الكاتب البورجوازي الذي كان لا يعبه بما مرّت به البورجوازية من الاضطرابات السابقة، أمام مشكلة جديدة.

يعلق بارت على هذا الانهيار للأيديولوجيةالبورجوازية التي دامت عقودا طويلة فيقول: ((لم يكن الكاتب البورجوازي ـ قبل هذه الأحداث ـ قد تمزق أمام وضعيته الاجتماعية ورسالته الثقافية، أما من الآن فان هذه الأيديولوجيا نفسها لن تظهر بعد إلا باعتبارها أيديولوجيا من بين أيديولوجيات أخرى ممكنة، وسينفلت كل ما هو كوني من أصابعها، ولن تستطيع الاستغناء عنه إلا بإدانة نفسها. ومن ثم يغدو الكاتب نهباً للالتباس ما دام وعيه يغطي تماماً شرطه الاجتماعي))(بارت، ١٩٨٠، ص٧٣).

فقد استطاع بارت أن يفهم من الإشارات التي تبثها الكتابات البورجوازية، إن الكتابة يمكن أن تصنف وفقا لنسقها العام (البورجوازية مثلا) بحيث أنه يستوعبها، ويدير حركة وحداتها من خلال علاقات يفرضها، وقد أعطى بارت أمثلة واضحة لبعض الكتابات المنغلقة، مثل الكتابة الماركسية، تلك الكتابة الماركسية التي أصبحت كتابة حزبية بقوله: ((الكتابة الماركسية مختلفة تماما عن كتابة الثورة، فمصدر انغلاق الشكل هنا لا يأتي من تفخيم بلاغي ولا من تفخيم معين للكلام، وإنما آت من معجم خصوصي ووظيفي، شبيه بالمصطلح التقني والاستعارات نفسها، تكون مرموزة بصرامة وبقوة في الكتابة الماركسية))(بارت، ١٩٨٠، ص٤٣).

ولهذه الأسباب المذكورة آنفا، يكون مصدر الإشارات الواردة في الكتابة ـ بصورة عامة ـ من دون أن تكون لها صلة مع الفكر واللغة والأسلوب قد ارتبطت بتأليف أو صناعة معجم خاص لهذه الكتابات متعلق بميول وغايات مذهبية. فمن خلال مقارنة بارت الكتابة الماركسية بالكتابات الأخرى، ويبرز طابع الانغلاق فيها، فيقول بارت: ((لقد كانت الكتابة الثورية الفرنسية تؤسس باستمرار حقا دموياً، أو تبريراً أخلاقيا أما الكتابة الماركسية فهي في الأصل معطاة بصفتها لغة للمعرفة، من ثم فهي كتابة وحيدة المعن، لأنها موجهة للحفاظ على التحام طبيعي. والوحدة المعجمية لهذه الكتابة هي التي تتيح لها أن تفرض استمراراً في التفسيرات واستمراراً في المنهج))(بارت، ١٩٨٠، ص٤٣).

وهذا يعد دليلا واضحا أن كل نظام يمتلك كتابته التي يحتاج تاريخها إلى انجاز، ولما كانت الكتابة هي الشكل الكلامي الملتزم علانية فإنها تشمل في آن، ونتيجة لالتباس ثمين، على كينونة السلطة ومظهرها، أي على ما هي عليه وعلى ما تريد أن يعتقده الناس عنها، لذلك فان تاريخاً للكتابات السياسية يشكل أفضل الفينومينولوجيات الاجتماعية، هذا إذا ما حاولنا تصنيف وإبراز معجمها الاصطلاحي الخاص، لأن لكل فترة من فترات التاريخ، وبجميع مجالاتها لها معجمها الخاص الذي يحدد شكل النظام الذي يحكم العالم آن ذاك (بارت، ١٩٨٠، ص٤٥).

الكتابة داخل نظام الخطاب عند فوكو:

إن المنهج الذي يسيّر فوكو في تحري الأسباب الكاملة التي أدت إلى ذلك المأزق في نظام الكتابة كان منهجا إجرائيا، في ملاحظة المفاهيم التي تمثل إشارات تابعة لأنظمة معرفية تسم العصور بسمات معرفية محددة، وكان الأجراء الذي اتخذه لفهم تلك الأنظمة المعرفية هو طرح فرضية قصدية لزعزعة الفهم القار ـ السائدة ـ داخل تلك المعارف الملغمة تنطلق تلك الفرضية من القول: إن كل بحث يمثل ابستيم (نظام) تحكم بفترة معينة ثم بعد ذلك ينتقل هذا الابستيم بفعل ظروف معينة إلى ابستيم آخر، وقد أطلق فوكو على الهوة التي تفصل بين هذه الابستيمات (بالانفصال) أو (القطيعة)، وقد أعطى لهذا الانفصال معناه. يقول فوكو معرفاً الانفصال: ((إنه قد يحدث أحيانا في خلال عدة سنوات أن تكف ثقافة ما عن التفكير على النحو الذي درجت عليه حتى تلك الآونة، لكي تشرع في التفكير في شيء آخر وعلى نحو آخر وبطريقة أخرى))(إبراهيم، ١٩٧٩، ص١٣١).

إن هذه القطيعات أو تلك الانفصالات تتسلل خلف الاتصالات الكبرى للفكر وراء التجليات العظمى والمتجانسة لروح أو لعقلية جماعية، وخلف الصيرورة العنيدة لعلم متمسك بأن يوجد، وان يكتمل منذ بدايته وخلف إصرار جنس من الأجناس الأدبية، لأن وجود هذه الانفصالات خلف هذه الأشكال من العلوم وفروعها تقطع الطريق أمام التراكم اللامحدود للمعارف وتوقفنموها البطيء وتزج بها داخل زمن جديد، وتفصلها عن مصدرها الاختباري ودوافعها الأصلية، وتطهرها مما علق بها من أوهام بعيدة عن الواقع (فوكو، ١٩٨٧، ص٦).

التقسيم الابستيمي للتاريخ المعرفي عند فوكو:

كانت محاولة فوكو في تقسيمه للمراحل التاريخية للفكر تقسيما ابستيميا هو نوع من تقنية معرفية غايتها بعثرة الفهم الذي تعودنا تقسيمه للتاريخ العام أو الخاص، فيقسم المعرفة ـ تبعا لتلك الآلية ـ إلى ثلاثة أقسام، وبدأ بعصر النهضة، ثم العصر الكلاسيكي(القرن السابع عشر)، والمرحلة التاريخية الأخيرة التي بدأت بظهور القرن التاسع عشر. وهذه

المراحل تمثل في نظره الإيقاعات الكبرى في المنظومة الثقافية الأوربية، دون أن يكون بينها أي استمرار أو اتصال (إبراهيم، ١٩٧٩، ص١٢٥).ولكي نستغل هذا التقسيم الثلاثي الذي يشمل على ظهور مجموعة من الأنساق التي ظهرت في هذه الفترات بأسماء مختلفة ونقتصر فيها على بحث نسق واحد من هذه الأنساق، كما سنحدد التحليل في موضوع البحث الرئيسي وهو الكتابة، لنرى نوع الابستيم الذي يحكم الكتابة في عصر النهضة، وقد كان هذا الابستيم يتمثل في المعارف على هيئة محددة تنطوي على محاولة ربط الأشياء بعلاقات مشتركة، إقامة التشابه بين هذه الأشياء بسحب أطرافها المتشابهة حتى نرى أنها أشياء متشابهة مع إقصاء منتصفات وأوائل الأشياء التي توصف بأنها مختلفة، بمعنى إقصاء ما في الأشياء من اختلافات.

إن هذا الابستيم الذي يكمن داخل معارف عصر النهضة، يوقع الكتابة آنذاك في مأزق المعنى الواحد، فبماذا يصف فوكو هذا الابستيم ؟ يقول فوكو: ((حتى نهاية القرن السادس عشر، لعب التشابه دور الباني في المعرفة الثقافية الغربية، فهو الذي قاد في جزء كبير تفسير النصوص وتأويلها، وهو الذي نظم لعبة الرموز، وسمح بمعرفة الأشياء المرئية واللامرئية .. عندما كان العالم ينطوي على نفسه، فالأرض تكرر السماء، والوجود يتمرأى في النجوم، والعشب يطوي في أوراقه الأسرار التي تخدم الإنسان، وكان الرسم يقلد الفضاء، والتمثيل آو الشعور ـ أكان عيدا أم معرفة ـ كان يتبدى كعملية تكرار: مسرح الحياة أو مرآة العالم. كان ذلك هو عنوانا لكل أسلوب، وطريقته في الإعلان عن نفسه وصياغة حقه في الكلام)) (فوكو، ب.ت، ص٣٩).

ربما استرسل فوكو في الوصف الأدبي، لكنه يصف فترة من فترات المعرفة التي تدعى بفترة التشابه، يعتبرها فوكو نظاما أو ابستيما معرفيا يحتوي فترة عصر النهضة، إذ يضع فوكو له عنوانا يبدو في شكله العام نوعا من مراوغة مقصودة للوصف التاريخي التقليدي الذي اعتدنا عليه سابقا، فهو ملغزا بعض الشيء، ولكنه يحوي داخله نسقا قويا يحكم تلك المعرفة من تاريخ الفكر، فعندما يقول فوكو: (إن الابستيم هو الذي قاد تفسير النصوص وتأويلها، وهو الذي سمح بمعرفة الأشياء المرئية واللامرئية، وكأن هنالك نظاماً واعيا لنفسه ولما يفعل لصالح نفسه، يقوم بتوجيه الذهنية نحوه ، ويتسلل بين الكلمات ليقود إلي التشابه، (فالأرض تكرر السماء)، تعقد معها علاقات مشتركة قائمة على التشابه، وكانت الأرض هي الصورة المكررة للسماء. وهذه هي إمكانية الابستيم على حصر الأشياء المتشابهة ذهنيا وليس واقعيا، فهو عصر التشابه، وهذا غير ممكن خارج ميدان الكتابة، واقعا، يتحدث فوكو عن العلاقات أو الأواصر التي تفرض تنفصلا على المعرفة، والتي تقوم بربط وحدات الكتابة مع بعضها البعض، هذه العلاقات يفرزها النسق العام (التشابه) وأكثر هذه العلاقات قوة

(التوافق)، وهو عنوان رئيسي داخل هذا النسق أو الابستيم، وقد حدد فوكو وظيفة هذه الآصرة التي تربط بين وحدات الكتابة، ليبين أن الكتابة واقعة في أزمة معرفية. يقول فوكو واصفا حركة هذا المفهوم داخل الكتابة: ((والحق يقال أن تجاوز الأماكن يجد نفسه قد سعى بهذه الكلمة أكثر من التشابه فالملائمات هي الأشياء التي حين تقترب الواحدة من الأخرى تجد نفسها))(فوكو، ب.ت، ص٤٠).

مفهوم التوافق (التشابه المكاني) في القرن السادس عشر:

قد يقترب مفهوم التوافق ـ إذا نظرنا من الخارج ـ من الأماكن، وربما أن هذه الأماكن مختلفة خارج الكتابة، ولكن قوة هذا المفهوم داخل المخيلة ساوى بين هذه الأماكن، وربما نراه قد وجد شيئاً من التوافق بينها، فعمم تعميماً كلياً بأنها متشابهة يقول فوكو مثلا: (فالملائمات هي الأشياء التي حين تقترب الواحدة من الأخرى تجد نفسها)، هل أنها تنظر إحداها إلى الأخرى؟ وكأنها تنظر إلى مرآة فتنعكس صورة نفسها؟.

ربما تكون الإجابة بمتابعة الفهم الفوكوي، وطرح الأسئلة حولها، كيف إن هذه الآصرة تتمفصل بين وحدات النص؟، كيف أنها تحاول وبكل قوة إقامة علاقات ونسجها من خلال التحايل على الأشياء، والضرب على وتر التشابه بين الأشياء، وعندما نريد تقريب المسافة بين الأشياء داخل الكتابة فكل اختلاف منفي داخل نظام التشابه، لا يوجد اختلاف بين الأشياء، ذلك هو لسان التشابه، إن ميدان التشابه هو الترصد لكل ما هو مختلف، لهذا كان فوكو مستغرباً حينما قال: (أكان عيدا أم معرفة).

يعطي فوكو وصفا أكثر دقة وفهما من الوصف الذي حدده لموضوع التشابه يقول فوكو: ((إنها تتلامس في أطرافها وتختلط أهدابها، والحد الأقصى للواحد منها يشير لبداية الآخر، وبذلك تتواصل الحركة والتأثيرات والأهواء والخواص كذلك))(فوكو، ب.ت، ص٤٠).

إن الأمر قد يكون صعبا جدا في محاولة تحديد الكلمات لفهم مفهوم (التوافق)، كان على فوكو اختيار الكلمات التي تعبر عن كيفية انسلال التوافقية بين الأشياء، ليقوم بعقدها من أطرافها، لهذا يعود سبب اختيار كلمات مثل: (تتلامس في أطرافها) و(تختلط أهدابها) و(الحد الأقصى للواحد منها يشير لبداية الآخر)، وكأن فوكو يضعنا أمام مصفوفة أو نسيج متراص لمفهوم التوافق، فجميع النصوص الفكرية وغير الفكرية، وفي تلك الفترة نسجت على أساس مفهوم سيادة التوافق آنذاك، فالأهداب والأطراف، والحدود، والبدايات، هي نهايات للأشياء، وأماكن ضعيفة مهمشة، يمكن أن تستغل لإقامة علاقات سرية، ويمكن أماكن لإنهاء الأنظمة فحدودها تكمن في مفهوم اللامرئي.

إن للكتابة سلطة تمارس داخل الأنظمة، ولهذه السلطة قوة لممارسة خطابها المعرفي من خلال الكتابة، (وبذلك تتواصل الحركة أي حركة الأشياء داخل الكتابة – والتأثيرات،

والأهواء، والخواص، وتراكم الأحداث). ويحدد فوكو هذه العلاقات وسلطتها فيقول: ((بحيث أن تشابهاً يظهر في مفصل الأشياء هذه، وهو مزدوج ما أن نحاول فصله تتشابه مكان وموقع وضعت فيه الطبيعة شيئين وبالتالي تشابه خواص، لأن في هذا الحاوي الطبيعي الذي هو العالم ليس التجاور علاقة خارجية بين الأشياء، وإنما علاقة قرابة مبهمة على الأقل))(فوكو، ب.ت، ص٤٠).

إن هذا التشابه هو نسق من الكتابة في فترة معينة، وهو يحتل العلوم وهو أيضا، لا وجود له خارج هذه الكتابة، لا وجود له في الطبيعة (نظاما عقليا)، وقد اتضح أن التناقض الذي تقع فيه الكتابة تناقضا بين المتناهي (واقع الأشياء في الخارج)، واللامتناهي النسق او النظام المعرفي (النظام العقلي في فترة محددة) داخل الكتابة ليكون خالدا دائما وأبدا.

إن (التشابه) عند فوكو قادرا على الاتساع، وإقامة علاقات متبادلة بين أشياء أعمق، وفي هذا المجال يذكر فوكو: ثم أنه من هذا الاتصال تنشأ بالتبادل تشابهات جديدة، ويفرض نظام مشترك نفسه. فالنفس والجسد مثلا متلائمان مرتين، كان لابد من أن تجعل الخطيئة من النفس سميكة وثقيلة وأرضية ـ كيف تقترب النفس لكي تشبه الجسد وتحل فيه ـ لكي يضعها الله في أعمق تجويف في المادة ـ نلاحظ كيف تتلاءم النفس مع الجسد من خلال مجاورتها له، وهو ما يحاول فوكو أن يوضحه من خلال نظام التشابه ـ ولكن بهذا التجاور تتلقى النفس حركات الجسد وتتمثل به في حين أن الجسد يتغير ويفسد بأهواء النفس(فوكو، ب.ت، ص٤٠). (إن عالم التشابه لا يمكن أن يكون إلا عالماً مطبوعاً بعلامة معينة)(فوكو، ب.ت، ص٤٦).

يمكننا إذن تحديد صفات النسق المعرفي في القرن السادس عشر، يقول فوكو: ((يبدو لنا أن معارف القرن السادس عشر كانت مؤلفة من خليط متقلب من المعرفة العقلية، ومن مفاهيم مشتقة من ممارسات السحر، ومن تراث ثقافي ضاعف اكتشاف نصوصه القديمة من قدرات سلطته))(فوكو، ب.ت، ص٥٠). وقد استعان فوكو بنص من كتاب القواعد لديكارت لوصف التشابه فيقول: ((حين نكشف بعض التشابه بين شيئين أن تضفي على هذا أو ذاك حتى في النقاط التي يختلفان فيها ما عرفنا بأنه حقيقي في واحد منها فقط))(فوكو، ب.ت، ص٦٥). ويمكن أن يستنتج فوكو موضوع الكتابة في تلك الفترة ويصفها بمعارف القرن السادس عشر، أو النظام المعرفي الذي كان سائدا في القرن السادس عشر، الذي خلّف ذكرى مشوشة عن المعارف المختلطة إذ يمكن لأشياء العالم أن تتقارب وفق صدفة التجارب والتقاليد والسذاجة لدى الشعوب، ((ليس هنالك في كل مكان سوى لعبة واحدة، لعبة الإشارات والتشابه ولذلك فان الطبيعة والكلمة يستطيعان أن يتقاطعا إلى ما لا نهاية مشكلين ـ لما يعرف بالقراءة ـ نصاً كبيراً واحداً))(فوكو، ب.ت، ص٥١).

إن نسق الكتابة في القرن السادس عشر كان موجها نحو تطبيق نسق من المعقولية يتقاطع واقعا مع الأشياء،عن طريق إيهامها بالاشتراك فيما بينها، ومن ثم دخولها نظام التشابه، وهذا ما أوقع المنهج البنيوي بمأزق الكتابة الذي لا مفر من أنظمته اللامرئية.

الخاتمة:

اعتادت مجتمعاتنا على تصنيف الكتابة بأنها إحدى الوسائل التي يتم بها نقل الفكر عن طريق اللغة، ومن إبداع الإنسان المتحضر، بل من أدلة تقدم الإنسان، والتي تعتمد نظام الرموز أولا، ثم تطورت إلى نظام الحروف. لكن الكتابة بمفهومها البنيوي تساوي الثقافة، والأعراف والتقاليد والحضارة، وهي متوارثة بين الأجيال، بمعنى أن الثقافة والأعراف والتقاليد والحضارة تتوارثها الأجيال، جيلا بعد جيل.

وبعبارة أخرى، إن الكتابة هي نظام لغوي متوارث ويسود فترة معينة، وأحيانا يعرض للخطر، وربما يتفكك أو تتدخل سلطة خفية للبقاء عليه، ولكن هذا البقاء مبني على الوهم، بإيهام الشعوب بطورها واختلافها. فالكتابة تعبر عن نظام بأكمله، في فترة معينة، ولهذا النظام أسلوبه ورأيته للتعبير عن العالم والكون والطبيعة، وبطبيعة الحال فإن هذا التعبير، سيأخذ شكل الكتابة والنظام السائد في فترة معينة.

فالتعبير عن العالم والطبيعة والحياة هو تعبير عن الكتابة نفسها، وليس تعبيرا معرفيا واقعيا، وبهذه الحالة ستكون الكتابة نظاما يحجب عنا رؤية العالم، بل أن العالم سيكون مخفيا أمام جميع المحاولات التي تحاول معرفته، لأن النظام الكتابي شكل جهازا مفهوميا في ذهنية الشعوب التي سيظهر لها العالم والطبيعة بشكلها المحجوب لا بشكلها المكشوف، وتكون المعرفة قائمة على هذا النظام لا على علاقة بين الذات والموضوع، كما هو في نظرية المعرفة.

Conclusion:

Our societies used to categorize writing as one of the means by which thought is transmitted through language, and from the creativity of civilized man, but rather from evidence of human progress, which adopts the symbol system first, and then developed into the letter system. But writing in its structural sense equals culture, customs, traditions and civilization, and it is inherited between generations, meaning that culture, customs, traditions and civilization are passed down from generation to generation.

In other words, writing is an inherited linguistic system that prevails for a certain period, and sometimes it is endangered, and it may disintegrate or a hidden authority intervenes to maintain it, but this survival is based on illusion, by deluding peoples with their development and differences.

Writing expresses an entire system, in a certain period, and this system has its own style and vision to express the world, the universe and nature, and of course this expression will take the form of writing and the prevailing system in a certain period.

The expression of the world, nature and life is an expression of writing itself, and not a realistic cognitive expression, and in this case writing will be a system that obscures the view of the world, but rather that the world will be hidden before all attempts that try to know it, because the written system constituted a conceptual device in the mentality of the peoples that will appear to them The world and nature are in their veiled form, not in their revealed form, and knowledge is based on this system and not on a relationship between subject and object, as is the case in epistemology.

المصادر:

١. فوكو، ميشال، الكلمات والأشياء، تر: مطاع صفدي وآخرون، مركز الإنماء القومي، بيروت – لبنان، بلا ط، بلا ت.

٢. فوكو، ميشيل، البنيوية والتحليلي الأدبي، تر: محمد الخماسي، مجلة العرب والفكر العالمي، مركز الإنماء القومي، بيروت – لبنان، العدد ١، ١٩٨٨.

٣. إبراهيم، زكريا، مشكلة البنية، دار مصر للطباعة، الفجالة – مصر، ١٩٧٩.

٤. كولر، جوناثان، مقدمة قصيرة جدا (رولان بارت)، تر: سامح سمير، مؤسسة هنداوي للثقافة، القاهرة– مصر، ط١، ٢٠١٦.

٥. بارت، رولان، درجة الصفر للكتابة، تر: محمد برادة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٨٠.

٦. برهييه، اميل، تاريخ الفلسفة (القرن السابع عشر)، تر: جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة، بيروت– لبنان،ط١، ١٩٨٣.

٧. بارت، رولان، أسطوريات، تر: قاسم مقداد، مركز الإنماء الحضاري، حلب – سوريا، ط١، ١٩٩٦.

٨. ميشال فوكو، حفريات المعرفة، تر: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت – لبنان، الدار البيضاء المغرب، ط٢ ، ١٩٨٧.